Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

عقلاء مجانين الصوفية بين خطاب الجنون وجنون الخطاب

The wise men of Sufism between the speech madness and the madness of the speech

طارق زيناي Tarek Zinai
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف * ميلة *
centre-univ-mila
zinaitarek@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2018-07-22 تاريخ القبول : 2019-01-22

مُلَخَّصٌ :

يشكل خطاب مجانين العقلاء من بين أهم الخطابات الهامشية المسكوت عنها في الثقافة العربية طيلة قرون مضت، فلم يكن يُنظر له إلا باعتباره نوعا من الشذوذ باعتبار الجنون، لا نوعا من الحكمة باعتبار العقل، فبرز صراع مستبطن بين سلطة العقل المدعوم رسميا بالمؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية، وسلطة الجنون المدعومة بالفكر المستنير والصوت الحرّ، فظهرت لأجل ذلك مسارد وروايات تسعى لإخراج هذا الخطاب من الظل، وتفتح أمامه أبوابا ظلت موصدة، بل وأكثر من ذلك استطاعوا أن يخاطبوا الحق بلسان عقلٍ مجنونٍ صاروا به أعقل مجانين العقلاء، من هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة خطاب الجنون وجنون الخطاب وتجلياتهما عند مجانين عقلاء الصوفية، والبحث عن مدارات التميز والثورة والتمرد وانعكاسات ذلك على متلقي خطابهم.

وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها في أن الحديث عن خطاب هامشي كخطاب عقلاء مجانين الصوفية، بإمكانه أن يفتح الباب على نوع من الحداثة المبكرة، التي تجعل من الجنون الروحي ثورة مستبطنة ضد العقل النمطي السائد المحجوب عن الحقائق والأسرار.

الكلمات المفتاحية: العقل؛ الجنون؛ التصوف؛ الخطاب؛ التمرد.

Abstract:

The speech of the madmen of the wise is one of the most important marginal speeches in Arab culture for centuries. It was seen only as a kind of anomaly as madness, not as a kind of wisdom as reason. A conflict arose between the authority of reason, which is officially supported by religious, And the power of madness supported by enlightened thought and free voice, for this appeared the narratives and novels seeking to get this discourse out of the shadow, and open before him doors that remained closed, and even more able to address the right tongue of mind crazy became the wisest of the most insane insane, To address the madness and madness of speech and manifestations of the insane minds of Sufism, and the search for the trait of excellence, revolution and rebellion and the repercussions on the recipients of their speech.

The study has reached a set of conclusions that can be summed up in the fact that talking about a marginal discourse as a wise man's mystical discourse can open the door to a kind of early modernity that makes spiritual madness an insurmountable revolution against the prevailing stereotypical mind that is hidden from facts and secrets.

keywords : Mind; insanity; mysticism; discourse; rebellion.

مَقَدَّمَةٌ :

لقد انبرى ثلة من القدامى للتأليف في أخبار وقصص عقلاء المجانين، ويرجع ذلك – رغم هامشية هذه المرويات - إلى أن ضغط كثرتها وتواترها (توفر المادة العلمية) عندهم، وإحساسهم بحق أولئك القوم في الالتفات إليهم، حتَّم عليهم التأليف فيها وذكر ما يخصُّها، ولو دون تنظير لمثل هذه النازلة العلمية والاجتماعية فظهر كتاب (عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد النيسابوري وعقلاء المجانين والموسوسين للحسن بن إسماعيل الضَّرَّاب)، إضافة للعقلية الموسوعية التي تميز بها بعض المؤلفين، والتي تستدعي تناول كل ما تلمحه العين (ابن الجوزي في أخبار الأذكياء وكتاب صفة الصفوة)، أما المؤلفات المعاصرة التي تناولت خطاب الجنون فيظهر الكتاب الموسوعي : ((تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي)) لميشال فوكو، والذي تطرق فيه لحفرياتِ معرفةٍ أخرى تناولت العلاقة بين العقل والجنون على مدار أكثر من أربعة قرون (عصر الأنوار) من تاريخ الثقافة الأوروبية، أما المؤلفات العربية التي حاولت الحفر في تيمة الجنون كخطاب ثقافي كتاب خطاب الجنون الحضور الفيزيائي والخطاب الثقافي (الاستبعاد والنفي) لصاحبه الباحث السعودي أحمد بن علي آل مريع وكتاب خطاب الجنون في الثقافة العربية لمحمد حيان السمان، بالإضافة إلى كتاب أحمد خصخوصي الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، الذي نحا فيه صاحبه منحى تأريخيا ومفهوميا قدم من خلاله كل ما يخص الجنون في الثقافة العربية، ولكن الملاحظ في كل هذه الكتب المعاصرة هو عدم التطرق لعقلاء المجانين إلا لماما، وعدم التطرق لمجانين عقلاء الصوفية إطلاقا، وهذا ما ستحاول الدراسة تناوله ووضع أساس فيه، بحيث يستطيع من يأتي بعده البناء عليه.

وقبل التطرق إلى حيثيات تبلور خطاب الجنون وجنون الخطاب عند عقلاء مجانين الصوفية، وطبيعة تلقيهما في الثقافة العربية، لابد من تدرُّج منهجي في طرح جملة من الإشكالات الملحة والافتراضات المراد البرهنة عليها، التي يعدُّ الإمساك بمفاصلهما خطوة مهمة في سبيل رسم معالم صورة هذا الخطاب، الذي هو بالأساس رجع صدى آخر لخطابات الهامش والمسكوت عنه في العقل العربي:

لعل أول ما يطرح هل لجنونِ عقلاء الصوفية خطاب له مفاهيمه وطروحاته إزاء خطاب العقلاء أو خطاب عقلاء الصوفية، إذا قلنا إن الصوفية في عقلهم يتفاوتون تفاوت المجانين في جنونهم ؟

وهل عاقل مجانين الصوفية الحامل لنسق القداسة – كما سنرى - يقوم بإنتاج خطاب خاص يرمي من ورائه إلى إثبات تعقله وهو المجنون، وجنون غيره وهم العقلاء ؟ ويظهر هذا الطرح خاصة في اعتماد النصوص السردية المروية على المفارقة سبيلا لتحييد خطاب العقل، وتحيين خطاب الجنون.

إن الهدف من تناول خطاب مجانين الصوفية هو الانتقال من كون السؤال عن عِلِّيَّةِ وجود هذا الخطاب، إلى السؤال عن كيفية بنائه من حيث إدراك العالم الخارجي، وكيفية التعبير عن هذا العالم تعبيرا مفارقا يجسِّدُ الرؤية / الرؤيا الصوفية في مستوياتها المتعالية.

أما أهم الفرضيات التي تطرحها هذه الدراسة فتتمثل في :

1/ وجود خطاب مفارق يجمع بين العقل والجنون.

2/ تنوع مستويات خطاب الجنون عند عقلاء مجانين الصوفية.

3/ جنون الخطاب عند عقلاء مجانين الصوفية ينطلق من اعتبار مفارقة الموقف بين العاقل الأحمق والمجنون العاقل.

وإذ نروم تتبع ظاهرة خطاب الجنون وجنون الخطاب عند عقلاء مجانين الصوفية، فلا شك أن المنهج المتبع هو المنهج التحليلي والوصفي كمناهج بحثية، مع الاستعانة بآليات النقد الثقافي؛ التي تدرس الخطابات المهمشة من خلال الأنساق المضمرة فيه.

تأسيس منطلقات زاوية الرؤية :

منهجيا يحيلنا الكلام عن جملة : ((عقلاء المجانين)) إلى مبحثين إجرائيين يحكمانها؛ العقل والجنون، بتفريعاتهما اللغوية والاصطلاحية (الشرعية والفلسفية والعلمية والتاريخية والنفسية والاجتماعية) والصوفية، وما دام بحثنا ينحو منحا البحث عن خصوصية الخطاب العرفاني عند عقلاء مجانين الصوفية، فإننا سنركز الكلام عن العقل والجنون في عرف الخطاب الصوفي، لأنها الكفيلة في تقديم أجوبة شافية حول مضمون خطاب الجنون وجنون الخطاب :

مفهوم الجنون :

إنَّ خطاب الجنون في الاصطلاح اللغوي خاضع لمفهوم المفارقة وخرق الطبيعة ومخالفة العادة والتفاوت وعدم الاستقامة على نسق واحد في التفكير والقول والسلوك، فقد تكاثرت الشواهد عن العرب في ذلك سواء عن البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد، ولهذا أصبح ما يأتي به المجنون خاضعا لمعنى من هذه المعاني أو خاضعا لها كلها، بحيث يخالف ما عليه الناس، يقول أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري في هذا الصدد : « لذلك دعت الأممُ الرسلَ مجانين، لأنهم شقُّوا عصاهم فنابذوهم وأتوا بخلاف ما هم فيه » [1]

وقد جاء في تعريف الجنون أنه : « اختلال العقل، بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادرا » [2]، فإذا كان وصف العقل واقعا عليه في أكثر السنة، فليس صاحبه بمجنون، أي أنَّ ضابط الجنون في هذه الحالة هو ضابط زمني بحت، فالحال الغالبة على الشخص هي من تحدد حالته عقلا وجنونا.

إن المتأمل في اعتبار ضابط الحد الزمني هو المعتمد – منطقيا – في الحكم على الأشخاص، يجد أنه يصدق فقط من الناحية النظرية التقريبية، وإلا فالعقل في كثير من الأحيان يجنح نحو الجنون، والجنون بدوره هو مسلك من مسالك العقل.

إذا انطلقنا من تعريف ميشال فوكو للجنون، الذي يقول فيه « ليس هو الغرابة المألوفة في العالم، إنه فقط فرجة معروفة عند متفرج غريب » [3] فإننا لن نحيد عن الصواب إذا قلنا إن الجنون أمرٌ معلوم بالعرض وبالقرائن التي إن توفرت حكمنا على صاحبه أنه مجنون، لكن الإشكال في الجنون، هو متلقيه، الذي عبر عنه فوكو بـ ((متفرج غريب))، إن الغرابة وصف قد تُجاوز المجنون إلى متلقي جنونه، الذي يتأمل سلوك المجنون لا لغرابته وإنما لأنه الأقدر على صناعة الاختلاف والتميز في الخطاب.

إن المتتبع لمؤلفات الصوفية ومعاجم ألفاظهم يلمح ظاهرة غريبة وهي الإعراض شبه التام عن ذكر الجنون مجردا أو مضافا إلى أبناء الطائفة الصوفية، لا تصريحا ولا تلميحا، فقصارى ما جاء عندهم إشارات لخروج العارفين منهم عن طور الوعي والإدراك بما يعرف عندهم بالأحوال الصوفية كالفناء والشهود والاصطلام والشطح ... ، ولعل السؤال يفرض نفسه في هذا الموقف، ما سبب تهميش خطاب الجنون عند الصوفية ؟، هذا الخطاب الذي هو في الحقيقة الأمر يشكل مع التصوف وجهان لعملة واحدة، يشتركان في أنهما خطابان مهمشان مقصيان لا محل لهما من الإعراب لا عند السلطات السياسية ولا المؤسسات الدينية، ومما يزيد الأمر غرابة هو كثرة الشواهد المروية عن المجانين وعقلائهم في كتب الصوفية وطبقاتهم وسيرهم، فكأن الطرح الصوفي همش خطاب المجانين سيرا على الطرح الديني القائل بسقوط الأهلية والتكليف عن أولئك، خاصة وأن كثيرا من أسباب الجنون عندهم ترجع لأمور دنيوية بحتة كالعشق وصدمات الفقد وعظم البلاء، أو أمور عضوية متعلقة بنوع الغذاء وغيره، لكن السؤال يبقى مطروحا عن عقلاء مجانينهم، ما الداعي لعدم التنظير لحالتهم، التي تستدعي وقوفا وتأملا، لكنْ عزاؤنا في أنَّ محي الدين بن عربي – كعادته- يسرق الأضواء من غيره، ويطرح ما غفل أو تغافل عنه الآخرون، حيث إننا نجد في فتوحاته قد عقد فصلا كاملا لمن أسماهم مجانين الحق أو ((المولَّهين)) أو ((البهاليل)) أو ((المجذوبين))، فأتى بالكلام الوافي عن أحوالهم ومعطيات تغير عقولهم (بالمعنى الإيجابي)، فرأى أنَّ الذي أتى لهم من الحق فجأة، إنما هو من سرور أو من حزن، فكأنَّ الباعث على الجنون عندهم هو وارد أو انفعال قاهر أتاهم من رجاء ومنه جاء السرور، أو من خوف، ومنه جاء الحزن، بل ويمكن أن يكون من حال / مقام المحبة ومنه جاء كلا الأمرين السرور والحزن على السواء، فيقول : ((وهو في ذلك بحسب الوارد الذي ذهب بعقولهم، فإذا وارد قهر قبضهم (...)، وإذا كان وارد لطف بسطهم)) [(4)]، فهم خاضعون لفجآت الحق ووارداته عليهم، وهم في ذلك على مراتب ثلاث، ذكرها ابن عربي في قوله : ((منهم من يكون وارده أعظم من القوة التي يكون في نفسه عليها، فيحكم الوارد عليه، فيكون في حكمه يصرفه الحال، ولا تدبير له في نفسه ما دام في ذلك الحال، فإن استمرَّ عليه إلى آخر عمره، فذلك المسمى في هذه الطريقة بـ ((المجنون)) كأبي عقال المغربي، ومنهم من يُمْسك عقله هناك، ويبقى عليه عقل حيوانيته : فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية، فهؤلاء يسمون ((عقلاء المجانين))، لتناولهم العيش الطبيعي، كسائر الحيوانات (...) ومنهم من لا يدوم له حكم ذلك الوارد، فيزول عنه الحال، فيرجع إلى الناس بعقله، فيدبر أمره، فيعقل ما يقول ويقال له، ويتصرف عن تدبير وروية، مثل كل إنسان، وذلك هو النبي، وأصحاب الأحوال من الأولياء)) [(5)]

من القول السابق يتبين لنا أن البهلول قد شُغل بما ورد عليه قبضا وبسطا أو سرورا وحزنا عن الالتفات إلى خدمة النفس والقيام عليها بما يقيمها من مأكل ومشرب وملبس، فكان انشغاله بما أتاه من الحق عن خدمة النفس سببا في انشغال الناس بخدمته بطيب خاطر ومحبة لا توصفان، فكأن محبة الله له، أورثته قبولا في قلوب الناس، والجزاء من صنف العمل.

إن العقلاء قد اتضحت عندهم حقيقة الجنون، فخرجوا بذلك من نمطية الطرح الظاهر لهذه الحالة من كونها غياب العقل واحتجابه واختلاطه وبعده عن

السلوك والقول السوي إلى اعتبار الجنون هو تنكب صراط النجاة والإخلاد إلى الشهوات والرضا بفتات الدنيا، ولهذا لما سئل أحدهم « من المجنون؟ قال: من لم يبال ما نقص من دينه بعد أن سلمت له دنياه، وقيل لآخر: من المجنون؟ قال: من لم يأمن على روحه ساعة وهو يسعى في عمارة دنياه » [6]

مفهوم العقل :

لقد كثر عند العلماء اعتبار العقل غريزة، يؤتاها الإنسان بدرجات متفاوتة، ثم هناك من يكتسب من العقل الموهوب عقلا مكسوبا، فالأول لا مزية لصاحبه فيه لأنه ولد به وفطر عليه، وهو كما يراه البعض « قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات » [7] وهو من الملكات الضرورية للإنسان الطبيعي بها يدرك النافع والضار والخير والشر والحق والباطل.

وفي هذا السياق يرى ابن الجوزي أن لفظ العقل يطلق على أربعة معانٍ [8] :

أحدهم : الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم، وهو الذي به استعدَّ لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده من قال : هو غريزة، وكأنه نور يقذف في القلب يستعدُّ به لإدراك الأشياء.

الثاني : ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

والثالث : علوم تستفاد من التجارب فتسمَّى عقلا.

والرابع : أن تنتهي قوة الغريزة إلى أن تقمع الشهوةَ الداعية إلى اللذة العاجلة.

لقد كثرت الآثار في الكلام عن فضل العقل، منها ما يصحُّ ومنها ما لا يصحُّ، وكلها مجمعة على مقدار أهميته بين الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة، منها ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: قُمْ، فَقَامَ، ثُمَّ قَالَ: لَهُ أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أُقْعُدْ، فَقَعَدَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا خَلَقْتُ خَلْقًا هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَلَا أَفْضَلُ مِنْكَ، وَلَا أَحْسَنُ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُعْرَفُ، وَبِكَ أُعَاقِبُ، وبِكَ الثَّوَابُ، وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ » [9]

ومن المعلوم الخلاف الفقهي والسلوكي عند علماء الدين في محل العقل من الإنسان هل هو الدماغ أو القلب ؟، ولا حاجة لنا في تتبع آرائهم في ذلك، الذي يهنا هو أن المتصوفة بما يؤثر عنهم من عدم الاعتراف بالعقل دليلا ومصدرا للمعرفة، إنما هم ينطلقون في ذلك من اعتبار العقل هو القائم على النظر والاستدلال والجدل والأقيسة والمنطق، لا العقل الذي هو رقيقة نورانية يدرك الإنسان بها – كشفا وشهودا – الله وتجليه في مخلوقاته، ولهذا جاء عن المتصوفة قولهم في إثبات عجز العقل وقصوره على معناه واشتقاقه اللغوي الذي هو من العقال أو الرباط و لهذا قيل عن الفقهاء " معقولون بعقولهم" هذا المعنى الذي عبر عنه ابن عربي بقوله : « فمن لم يشهد التجليات بقلبه ينكرها بعقله » [10] وقيل لأبي الحسن النّوري رحمه الله : « بم عرفت الله تعالى ؟" فقال : بالله ، قيل: فما بال العقل؟ قال : « العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » [11] ، وأيضا ما يُروى عن أبي بكر السبَّاك قوله : « لما خلق الله الْعقل قَالَ لَهُ من أَنا؟ فَسكت فكحله بِنور الوحدانية فَفتح عَيْنَيْهِ فَقَالَ أَنْت الله لَا إِلَه إِلَّا أَنْت فلم يكن لِلْعَقْلِ أن يعرف الله إِلَّا بِاللَّه» [12]، ولهذا قد انتشر بينهم أن العقل الذي يفقد نفسه بجرعة خمر خليق أن لا يقوى على حمل ثقل المعرفة الإلهية، التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها، ولهذا فهم يميلون إلى

اعتبار أن العقل لا يصحُّ الاعتداد به إلا متعلقا بالقلب والروح، وأنه لا يمكن أن يكون دليلا إلى الله تعالى ولهذا أجمع القوم : « على أَن الدَّلِيل على الله هُوَ الله وَحده وسبيل الْعقل عِنْدهم سبيل الْعَاقِل فِي حَاجته إِلَى الدَّلِيل لِأَنَّهُ مُحدث والمحدث لا يدل إِلَّا على مثله » [13] وقول بعضهم : « العقل يجول حول الْكَوْن فَإِذا نظر إِلَى المكوّن ذاب » [14]

مما سبق يمكن أن نفهم أن عقلاء مجانين الصوفية - إذا سلَّمنا بحضور عقلهم مع استثناء جنونهم - ليس هم عقلاء النظر والاستدلال والقياس والمنطق، وإنما هم عقلاء الكشف والذوق والإدراك القائم على لطافة الروح وصفاء القلب من الشواغل والحجب والأغيار والسِّوى، فهم « قوم آتَاهُم الله عقولا وأحوالا فسلب عُقُولهمْ وَأبقى أَحْوَالهم وَأسْقط مَا فرض بِمَا سلب » [15] كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية.

وبهذا إذا أردنا أن نفرق بين عقلاء مجانين الصوفية وعقلاء المجانين غير الصوفية، أن الأوائل سبيل الإصابة عندهم هي الأرواح، والآخرين هو الحكمة والنظر السليم والاستدلال الصحيح، ولهذا جاءت الأقوال عند الصوفية متكاثرة على التفريق بين العقلين، من ذلك قول ابن عطاء : « العقل آلَة للعبودية لَا للإشراف على الربوبية » [16]، ولهذا يتفرع عن هذا الكلام الخروج عن وصف عقلاء مجانين الصوفية من ثمرات العقل ومقتضياته كالفهم والذكاء والتفكر وغيرها، لأنها غير مرادة عندهم، فهي أوصاف العقول المحكومة بالنظر والاستدلال.

إن المطالع لجلِّ شواهد ومواقف وآراء عقلاء المجانين يرى لهم صفات العقلاء كما تكلم عنها المستدلون على التعقل بالأفعال والأحوال، ومنها سكونه ووقاره ورزانته وكثرة صمته.

لاشك أن الكلام عن خطاب الجنون لابد أن يستدعي الكلام عن خطاب العبقرية، لأن هذه الأخيرة – في الحقيقة – ما هي إلا وجه من وجوه تعقل المجانين، ولعل هذا الربط يرجع إلى أن العبقرية يمكن أن تفسَّر تفسيرا نفسيا يرجع بها إلى أنها شعبة من شعب الجنون، أو قل هي جنون إيجابي مؤقت [17]، يدرك من خلاله صاحبه في لحظة ما، ما يمكن أن يكون قد تجاوز فيه عمره الافتراضي بسنوات أو عقود، ولهذا يقال عن العبقري : إنه إنسان سابق لزمانه، من هذا المنطلق يبرز تميز عقلاء المجانين، في أنهم لحظة استواء عقولهم واستقامتها على جادة الإصابة وميزان الحكمة وقانون المنطق، يكونون أقرب في أقوالهم وسلوكاتهم إلى أقوال وسلوكات العباقرة، ويرجع هذا الربط إلى أنَّ « إطلاق صفة العبقرية على الرجل هو اعتراف منا بما يتمتع به من قوى إبداعية غير عادية » [18].

خطاب الجنون عند عقلاء مجانين الصوفية:

إذا كانت العقل العربي لم يقص خطاب الجنون من مدارات اهتماماته لا في مضمونه ولا شكله – على الأقل في لحظات وعي معرفي وأخلاقي عند بعض المنصفين من العقلاء للمجانين - حيث أفردت له كتب وفصول تؤرخ للحظات الجنون في الثقافة العربية، فإن الفكر الصوفي - ممثلا تقريبا في ابن عربي - بدوره نحا هذا المنحى، فجعل من جنون الصوفية أفقا روحيا متعاليا، يجسِّد صوت من اختارهم الله لقربه لجنونهم به وله.

إذا كان السؤال الذي يُطرح عن عقلاء المجانين، هل هم قبل اختلاطهم كانت عندهم قابلية للجنون،

بحكم أنَّهم أشخاص متميزون لم تستوعب عقولهم الزمن الذي هم فيه، فإن السؤال عن عقلاء مجانين الصوفية، يمكن أن يكون السؤال كالآتي، هل لهؤلاء الأشخاص قبل اختلاطهم واضطراب عقولهم، كانوا في الأصل مهيئين للجنون، لما قد وصلته مداركهم وسمو أرواحهم في مدارج الحقيقة والكشف والشهود ؟ بمعنى آخر هل أن الإنسان الصوفي معرَّض إلى الجنون في مرحلة من المراحل المتقدمة في المعرفة والمحبة والتحقق؟

يقول ابن عربي في فصل له ((عقلاء المجانين من أهل الله)) من فتوحاته إجابة عن التساؤل السابق : « وهؤلاء هم الذين يسمون عقلاء المجانين، يريدون بذلك أن جنونهم ما كان سببه عن أمر كوني، من غذاء أو جوع أو غير ذلك، وإنما كان عن تجلٍّ إلهي لقلوبهم، وفجأة من فجآت الحق فَجَأَتْهُمْ، فذهبت بعقولهم، فعقولهم محبوسة عنده، منعمة بشهوده، عاكفة في حضرته، منزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول ! وعُرفوا في الظاهر بالمجانين؛ أي المستورين عن تدبير عقولهم، فلهذا سموا عقلاء المجانين » [19] فمدار الجنون عند بعض من عقلاء الصوفية يرجع أساسا لقابلية أرواحهم لهذا الوصف دون غيرهم من عرفاء الصوفية، وإلا ما الذي منع أرباب السلوك في كل عصر من الجنون في الله، بل إن السؤال يرجع حتى للأنبياء وهم أعرف الناس بالله وأقربهم وأحبهم له وأخوفهم منه، فكأن ابن عربي يخص بعض الصوفية دون غيرهم بوصف الجنون لما طرأ لهم من الحق تعالى فَفَجَأَهُمْ في لحظة تجلٍّ، فطاشت عقولهم على إدراك ما وصلوا إليه من معرفة وكشف وحقيقة، ويؤكد ابن عربي هذا المعنى بقوله : « ولم يكن لهم علم بأن لله تعالى الحقِّ ((فجآت لمن خلا به في سرِّه))، وأطاعه في أمره، وهيَّأ قلبه لنوره من حيث لا يشعر، ((فَفَجَأَهُ الحق على غفلة منه)) بذلك، وعدم علم، واستعداد لهائل أمر، فذهب بعقله في الذاهبين، وأبقى تعالى ذلك الأمر الذي فجأه، مشهودا له، فهام فيه، ومضى معه » [20]

إذن لا مناص لنا من القول إنَّ وصف الولاية كما يطال العقلاء من البشر يمكن أن يطلق على المجانين منهم إذا وصلوا في القرب والتحقق بما من شأنه أن يرفع عقولهم منهم، ويستبدلها بأرواح تعقل عن الله، يقول ابن خلدون مؤكدا هذا الكلام بقوله : « و من هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء و هم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين و يقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم و الولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها » [21]

ثم نتساءل ثانية هل جنون الصوفية جعلهم في منأى عن الصراعات العنيفة بين الفكرة الصوفية والمؤسسات الدينية والسياسية ؟ هل الجنون بهذا المعنى أضحى حصانة مكتسبة تمكن الصوفي من البوح والجهر بما في قلبه ووجدانه ؟ هل لو ادَّعى أبو منصور الحلاج والسَّهروردي الجنون لكان عصمة لدمائهم، على شاكلة الهاربين من الخدمة الوطنية ومن المحاكمات الجنائية، بحيث يغدو ادَّعاء الجنون نوعا من السلطة المضادة المشروعة والمقبولة اجتماعيا وثقافيا، وهذا ما

شاع في فترات مختلفة من التاريخ العربي بل والإنساني، حيث بات تقمص دور المجنون يرفع عن صاحبه الكلفة الأخلاقية والسياسية والثقافية والاقتصادية (المعيشية)، ومن جنس ادعاء الجنون ادعاء الحمق والغفلة والسفه!

ولعلَّ الجواب عن هذا التساؤلات لا تكاد تقدم شيئا ذا بال، لأنها كلها محكومة بطابع سياسي وإيديولوجي لا يقدم ولا يؤخر في جنون عقلاء الصوفية؛ الذين هم أساسا خارجون عن نطاق التقييد والالتزام المفروضيْن عليهم دينيا وسياسيا.

لاشك أن الكلام عن جنون يقتضي الحديث عن عقل آخر موازٍ، يعمل بصورة تختلف عما يعمل به العقل الصحيح، ولهذا يرى ميشال فوكو أن « الجنون والعقل منتظمان داخل علاقة أبدية لا فكاك منها، وهي علاقة تجعل لكل جنون عقلا يحكم عليه ويتحكم فيه، وكل عقل له جنونه الذي يجد داخله حقيقته » [22] فالجنون بهذا المعنى لا يعدو أن يكون إلا نوعا من أنواع إعادة إنتاج وعي صوفي آخر غير معهود - على الأقل - في الغالب على الصوفية، وإلا فإن الصوفية يصيب عرفاءهم في لحظات الفناء والسكر، أضعاف ما يصيب المجنون في لحظات جنونه، كما هو معروف.

إن المجنون في لحظة تعقله يمارس نوعا من السلطة الجنونية إزاء العقلاء الحمقى، التي يتميز من خلالها الجنون على التعقل، ولهذا نحن في بعض الأحيان بحاجة إلى الجنون أكثر من حاجتنا إلى التعقل، إذا كان الأول يصل بنا إلى الصواب، والثاني يحيد بنا عنه، فمعادلة معيار الصحيح والخطأ عند عقلاء المجانين، انتقلت من كونها بين العقل والجنون، إلى كونها بين الجنون والحمق، بل إن إصابة الحق هي الخيط الفاصل بين الجنون والمجنون العاقل، فالجنون باعتباره وصفا دائما أو مؤقتا يأخذ قيمة سلبية في نفسه، بخلاف المجنون العاقل الجامع بين النقيضين، ولعل هذا ما قصده ميشال فوكو بقوله : « إذا كان الجنون يأخذ صاحبه في دوامة حيث يفقد السيطرة على نفسه، فإن المجنون على العكس من ذلك، يذكر الكل بحقيقتهم » [23] فكأن هناك نسقا معرفيا مضمرا في بوح المجنون بعقلانيته، مفاده مجنون عاقل عالم خير من عاقل أحمق جاهل، فالحمق والجهل هما موت العقل، والعقل والحكمة هما حياة الجنون، وهو ردٌّ غير مباشر على الحكم العدمي على المجنون وربطه بالموت الافتراضي، فهنا نوع من قلب الأدوار المتصل بالمعادلة السابقة، ولهذا مدار الحكم على الناس بالتقريب والاستبعاد والمحبة والكره والتقدير والتحقير، ترجع لإفرازات العقول بغض النظر عن أصحابها، ولعل هذا التخريج، هو ما جعل كبراء الصوفية يستأنسون بأقوال عقلاء مجانين الصوفية، بل ويروونها جنبا إلى جنب لأقوال العقلاء، إذ مدار الأمر على الإصابة المنوطة بالحكمة، والتي تؤخذ عند القوم ولو من أفواه المجانين!! ولعلَّ هذ ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم، في تغييره مفهوم المجنون إلى مفهوم المُصاب، فعن عن أنس بن مالك قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه إذ مر رجل فقال بعض القوم: مجنون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَلَكِنَّ هَذَا رَجُلٌ مُصَابٌ» [24] ومنه أيضا ما روي عن أبي القاسم الحكيم قوله : « من عرف نفسه كان عند الناس ذليلا ومن عرف ربه كان عند الناس مجنوناً » [25]

إنَّ هناك احتمالا كبيرا إلى أنَّ من عقلاء مجانين الصوفية من اتَّخذ الجنون وسيلة تمويه كي يعبد الله

على مراده، طالبين في ذلك الإخلاص والتجرد والبعد عن السمعة والرياء وحب الظهور، جريا على سلوك ما يسمى بالملامية، و« هم الذين لم يظهروا مما في بواطنهم على ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص، ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرصة الغيب (...) وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري » [26] ، ويؤكد هذا الكلام ما قاله ابن عبد ربه في أحد الصوفية : « كان في زمن المهدي رجل صوفي، وكان عاقلا عاملا ورعا، فتحمَّق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » [27] وهذا ما قيل أيضا عن البهلول أنه يستخدم جنونه سترا عليه [28]، ولهذا تروى عنه خطابات وعظية زاجرة للخلفاء، مثل ما جرى له مع الرشيد، الذي أبكاه كلامه وأثر فيه أيَّما تأثير، وهو بسماعه له وتأثره بموعظته قد « عامله معاملة العاقلين العلماء، بل كان في نظره أعقل العاقلين وأصدق الوعاظ وأحكم الحكماء» [29]

إن مجانين العقلاء عقلاء باستثناء ذهاب عقولهم، فالعبرة إذن بما يسفر عنه العقل من حكمة وإصابة، لا بحقيقة حضور العقل، ولهذا ففي حالة الصمت يستوي العاقل والمجنون، ويكون التفاضل بالكلام إجادة وبلادة، وبهذا المعنى تعرف أفضلية المجنون في إصابته للحق على العاقل المجانب له، وشاهد هذا الكلام ما أورده ابن الجوزي عن أَبي مُحَمَّد بن عجيف قال: ((مرَّ بي مَجْنُون فَقلت : يَا مَجْنُون قَالَ : وَأَنت عَاقل !؟ قلت : نعم، قَالَ : كلا يَا مَجْنُون، وَلَكِن جنوني مَكْشُوف وجنونك مَسْتُور قلت : فسر لي، قَالَ أَنا أخرق الثِّيَاب وارجم وَأَنت تعمر دَار لَا بَقَاء لَهَا وتطيل أملك وَمَا حياتك بِيَدِك وتعصي وليك وتطيع عَدوك)) [30]،

وشاهد ذلك أيضا ما ردَّ به بهلول المجنون لما قيل له : « أَتَعُدُّ المجانين؟ قال: ها يطُولُ ولكني أعدُّ العُقَلاء! » [31]

إن البهلول هنا يقوم بمقاربة بنية المجتمع مقاربة معيارية تقوم على تصنيف العقلاء؛ لأن عدهم متيسِّر، في مقابل تعذر عدِّ المجانين، فكأن البهلول قد أخرج بمنظور الجنون كل ما لا يتوافق مع معطيات رؤيته، فجعل الجنون في عرف العقلاء تعقُّلا، والتعقل في عرف العقلاء جنونا، ولعل هذا هو النسق المضمر الذي يعيش به ومن خلاله المجنون في دائرة العقلاء، فهنا مقابلة بين العقل بوصفه جهازا مدركا يستطيع كشف الجنون والتعبير عنه، وبين الجنون بوصفه جهازا مدركا يستطيع بدوره الكشف عن التعقل والتعبير عنه، وهذا ما قصده أبو حيان التوحيدي بقوله : « وكما أنّه يبدر من العاقل بعض ما لا يتوقّع إلَّا من المجنون، كذلك يبدر من المجنون بعض ما لا يتوقّع إلا من العاقل، ولا يعتدّ بذلك ولا بهذا، أعني أنّ العاقل بذلك المقدار لا يُرى مجنونا، والمجنون بذلك المقدار لا يسمّى عاقلا، وإنما اجتمعا في النادر القليل، لاجتماعهما في الجنس الذي يعمّهما، والنوع الذي يفصلهما » [32]

إنَّ خطاب عقلاء المجانين هو نوع من ردة الفعل الواعية على الخطاب الديني القائم على تحييد من ثبت جنونه وإلحاقه بالصبيان والنساء وغيره من القصَّر والمحجور عليهم، فلا يُعتدّ بشهادته ولا يتولى القضاء ولا قيادة الجيش، ولا غيرها من المسؤوليات الأخرى، بل إن رواية أخبارهم وحكمهم من الذين أدركوا خصوصية خطابهم كالجاحظ وابن عبد ربه والنيسابوري والصرَّاب وابن الجوزي، ما هو إلا دليل وعي عميق من أولئك، وردم لهذه الهوة المصطنعة بين خطاب العقلاء وخطاب المجانين، وكأني بهم قد أدركوا أن العقل العربي كما

استوعب خطاب حمقى العقلاء، فلا يسعه إلا استيعاب خطاب عقلاء المجانين، فالمسألة أولا وآخرا ترجع لصراع مستبطن بين العقلاء ومجانين العقلاء حول سلطة المقبولية في المجتمع، إنه صراع المركز والهامش في الثقافة العربية بين خطاب الجنون عند المجانين وجنون الخطاب عند العقلاء.

إنَّ صوت خطاب المجنون الصوفي هو صوت مؤسس لوعي جديد معرفيا وفنيا، فالإطار العام الذي تدور فيه جميع الشواهد المنسوبة لهذه الطائفة تتفق في رسم معالم رؤية متفردة للنفس والوجود وقبلهما لله تعالى، فالصوت الصوفي حاضرٌ في رؤيته الفلسفية عبر عدة مستويات قولية وسلوكية تقرر هوية روحية خاصة، أما من الناحية الفنية فلا شك أنَّ البعد السردي غالب على أكثرها من حيث القص والوصف والحوار والتفضية والتبئير والتخييل ...

إننا نحن إذ نتكلم عن خطاب الجنون، فلا ريب نحن نتكلم عن طبقة مهمشة منكفئة عن نفسها، تعيش إقصاءً اجتماعيا وفكريا وتواصليا، ينظر إليها من منطلقات متباينة من طرف أفراد المجتمع، وهذا نتيجة نوعية هذا الخطاب وطبيعة أصحابه، أما الكلام عن تهميش عقلاء مجانين الصوفية في إطار التلقي الصوفي بفضاءاته الروحية المشتركة، فغير مسلَّمٍ، لأن الصوفية يدركون طبيعة حال مجنون الله أو مجنون الحق، ولهذا قد تواترت الروايات عنهم في موقفهم من المولَّهين – من خلال الشواهد المروية، التي سنشير لبعضها - وأنه لا يراد به البتة عندهم ما هو مشهور عند غيرهم، وجماع ذلك ما قاله أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري: « المجنون عند أهل الحقائق من ركن إلى الدنيا وعمل لها وطاب بها عيشا، بذلك نطقت الأخبار »[33]، ولهذا عقد ابن الجوزي الباب الثلاثين من كتابه أخبار الأذكياء خاصا بذكر طُرَف من فطن عقلاء المجانين، ذكر منهم قصصا تروى عن عقلاء المجانين المحسوبين على الصوفية، منها ما رواه أبو بكر الشبلي قال: « رأيت يوم الجمعة معتوها عند جامع الرصافة قائما عريان، وهو يقول : أنا مجنون الله، أنا مجنون الله؛ فقلت له : لم لا تدخل الجامع وتتوارى وتصلي، فأنشأ يقول[34]:

يَقُولُونَ زُرْنَا وَاقْضِ وَاجِبَ حَقِّنَا	وَقَدْ أَسْقَطَتْ حَالِي حَقُوقَهُمْ عَنِّي
إِذَا هُمْ رَأَوْا حَالِي وَلَمْ يَأْنَفُوا لَهَا	وَلَمْ يَأْنَفُوا مِنْهَا أَنِفْتُ لَهُمْ مِنِّي »

جنون الخطاب عند عقلاء مجانين الصوفية :

إنَّ عقلاء المجانين - هم في الأصل - ينتقلون بجنونهم من مستوى المعرفة المشوشة والمضطربة إلى مستوى الحكمة، يقول فوكو : « إن عقل الإنسان في علاقته بالحكمة ليس سوى جنون »[35] ، ووجه الربط بين الحكمة والجنون أنهما يشتركان في اعتبارهما يشكلان تميزا من نوع خاص، وارتقاء في سلم المعرفة، ولكن بينهما خصوص وعموم، فالحكمة أعم من الجنون، بوصف الحكمة يشترك فيها العقلاء والمجانين، والجنون أخص من الحكمة؛ لأنه ينطلق من استثناء عقلي، أي أن المجنون يعيش فترة زمنية عاقلة، يخرج بها من الجنون الدائم إلى الحكمة المؤقتة، ولهذا فالجنون والعقل متشابهان، وهذا ما قصده فوكو بقوله : « لقد أصبح الجنون شكلا من أشكال العقل ذاته، إنه يندمج معه ليشكل إما قوى خفية، وإما لحظة من لحظات تجليه، وإما شكلا مفارقا يعي ذاته بذاته، وفي جميع الحالات فإن الجنون لا يمتلك معنى وقيمة إلا

داخل حقل العقل »[36]، وقد سبق ابن عبد ربه فوكو في ترشيد المجنون بوصفه قد يكون حكيما مع جنونه، فيقول : « وقد يأتي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يسمع بمثله، كما قالوا: ربّ رمية من غير رام » [37]

نصل بهذا إلى نتيجة مفادها أن المجنون العاقل الصوفي في لحظة تعقله، لا يمكن أن يسمى كغيره مريضا؛ لأنه في حالة تعقله لا يختلف عن الأصحاء معرفة وإدراكا، بل هو يفوقهم بما حصَّله من جنونه، وما غاب عنهم من عقولهم، يقول ابن عربي مبرزا خطاب جنون الصوفية، وأنه نور من نور الله وحكمة أودعها الله قلوبا أحبته، فأكرمها بالجنون الظاهر للخلق، والمعرفة والقرب باطنيا للحق : « فبقى (هذا المؤله المدله، الذي فجأه الحق على غفلة منه)، في عالم شهادته، بروحه الحيواني، تصرَّف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضاره، من غير تدبير ولا روية ولا فكر، ينطق بالحكمة ولا علم له بها، ولا يقصد نفعك بها، لتتعظ وتتذكر أن الأمور ليست بيدك، وأنك عبد مصرَّف بتصريف حكيم » [38]

مما سبق يمكن أن نطلق على عقلاء مجانين الصوفية – إن جنَّوا فعلا - بوصفهم أعلى درجة من عقلاء المجانين النمطيين، أنهم مجانين الله؛ أي أن جنونهم مرتبط أساسا في علاقتهم بالله وسلوكهم إليه، على حسب علل الجنون معرفة ومحبة وخوفا واشتياقا...

إنَّ عبقرية المجانين تتجلى في المفارقة الواقعة في إجاباتهم الحكيمة وآرائهم الصائبة، مع حقيقة واقعهم (الشكل والسلوك وردود الأفعال غير الطبيعية)، حيث يبرز من خلال هذه المفارقة حكم من الذي حضر الواقعة القصصية أو السردية، بإحدى أنواع ردود الفعل المندهشة أو المتعجبة أو المتفاجئة، والتي في الغالب تأتي على حسب ما أتى به العاقل المجنون من قرب للحق وإصابة له، فالمفارقة إذن تتأتى بتلاحم شقي حضور الجنون عند صاحبه المستوى الشكلي والسلوكي من جهة والمستوى التعبيري المنطوق من جهة ثانية، وفيما يلي نتناول نسق المفارقة – بوصفه هو الحاكم لجنون خطاب عقلاء مجانين الصوفية- في بعض ما رُوي عنهم في مظانِّ الكتب، والتي منها:

1/ ما رواه الجنيد قال[39] : « سَمِعْتُ السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ يَقُولُ: خَرَجْتُ يَوْمًا إِلَى الْمَقَابِرِ، فَإِذَا أَنَا بِبُهْلُولٍ قَدْ دَلَّى رِجْلَيْهِ فِي قَبْرٍ وَهُوَ يَلْعَبُ بِالتُّرَابِ فَقُلْتُ: أَنْتَ هَا هُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا عِنْدَ قَوْمٍ لَا يُؤْذُونَنِي، فَإِنْ غِبْتُ عَنْهُمْ لَا يَغْتَابُونَنِي، فَقُلْتُ: يَا بُهْلُولُ الْخُبْزُ قَدْ غَلَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُبَالِي وَحَبَّةٌ بِمِثْقَالٍ، إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَهُ كَمَا أَمَرَنَا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْزُقَنَا كَمَا وَعَدَنَا، ثُمَّ وَلَّى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

يَا مَنْ تَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا	وَلَا تَنَامُ عَنِ اللَّذَّاتِ عَيْنَاهُ
أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِيمَا لَسْتَ تُدْرِكُهُ	تَقُولُ لِلَّهِ مَاذَا حِينَ تَلْقَاهُ»

2/ « قال عبد الواحد بن زيد: سألت الله عز وجل ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة، فرأت كأن قائلاً يقول: يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء، فقلت: وأين هي؟ فقال: في آل فلان بالكوفة، قال : فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها فقيل : هي مجنونة بين ظهرانينا ترعى غنيمات لنا، فقلت: أريد أن أراها، قالوا: اخرج إلى

الجبان، فخرجت فإذا بها قائمة تصلي، وإذا بين يديها عكاز لها وعليها جبة من صوف، عليها مكتوب: لا تباع ولا تشترى، وإذا الغنم مع الذئاب، فلا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف الذئاب (...) فقلت لها: إني أرى هذا الذئاب مع الغنم، فلا الغنم تفزع من الذئاب، ولا الذئاب تأكل الغنم، فأي شيء هذا؟ فقالت: إليك عني فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح بين الذئاب والغنم » (40)

3/ « بلغنا عن أبي الجوال المغربي قال: كنت ببيت المقدس جالساً مع رجل صالح وإذا قد طلع علينا شاب والصبيان حوله يقذفونه بالحجارة ويقولون: مجنون فدخل المسجد وهو ينادي اللهم أرحني من هذه الدار، فقلت له: هذا كلام حكيم فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: من أخلص له في الخدمة أورثه طرائف الحكمة وأيده بأسباب العصمة، وليس بي جنون وولق؛ بل قلق وفرق... فقلت له: أحسنت لقد غلظ من سماك مجنوناً، فنظر إلي وبكى وقال: أولا تسألني عن القوم كيف وصلوا فاتصلوا؟ فقلت: بلى أخبرني؟ فقال: طهروا له الأخلاق، ورضوا منه بيسير الأرزاق، وهاموا من محبته في الآفاق، وائتزروا بالصدق، وارتدوا بالإشفاق، وباعوا العاجل الفاني بالآجل الباقي، وركضوا في ميدان السباق، وشمروا تشمير الجهابذة الحذاق، حتى اتصلوا بالواحد الرزاق، فشردهم في الشواهق وغيبهم عن الخلائق، لا تؤويهم دار ولا يقرهم قرار، فالنظر إليهم اعتبار، ومحبتهم افتخار، وهم صفوة الأبرار، ورهبان أخيار، مدحهم الجبار ووصفهم النبي المختار، إن حضروا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن ماتوا لم يشهدوا » (41)

من خلال الشواهد الثلاثة السابقة يتبين لنا أن خطاب الجنون عند أولئك القوم يقوم على خرق أفق توقع القارئ، إذا رأى شكلهم وسلوكهم، إذ لا يدور في خلده البتة، أن من هؤلاء يصدر كلام لا يقوله إلا أعقل العقلاء، بحيث يغدو من حاورهم وأدرك مفارقة الموقف عندهم، موقفه هو من جنون الخطاب وخطاب الجنون.

خَاتِمَةٌ :

في نهاية هذه الدراسة لا يسعنا إلا أن نقول لقد « حافظ مفهوم الجنون على إباء وعناد جعلاه في بعض أبعاده جليلا جلال القدر المقترن به، غامضا غموض الغيب المعلن عنه، ولذلك أيضا لم ينل الجنون- سواء عبرت علته أو جثمت - من قيمة الإنسان باعتباره إنسانا ولو بقدر ضئيل، بل لكأنما تضاعفت طاقات المصاب وتعددت ملكاته حتى اتصل – على نحو من الأنحاء الغامضة – بعالم علوي فيه ما فيه من الألغاز المهيبة والأسرار الرهيبة » (42)

ومما سبق من تناول هذا الموضوع نصل إلى النتائج الآتية :

*/ الثقافة الحاكمة تعاير المجنون بما ظهر لهم منه في ظاهر حاله في سلوكاته وأقواله ولباسه، والثقافة العالمة تعايره بما تجلى لهم منه في باطن حاله في حكمته وسداد وإصابة رأيه وبعد نظره ومعرفته لربه.
*/ جنون الصوفية متعلق بلغة الأرواح المشعة بنورها على تعقل القلوب، فهي بهذا لها روح إلهية مؤيدة، وتعقل غيرهم لا يعدو أن يكون جوهرا مدركا متوافقا مع السيرورات المنطقية المسددة (ضرورات العقل).
*/ خطاب عقلاء مجانين الصوفية برزخ بين الوعي واللَّا وعي، أو قل بين الحضور والغياب والصحو والسكر والقبض والبسط، وفي المقابل هو خطاب جامع لمفاهيم

الحرية والانطلاق والصمت والبوح.

*/ الملاحظ في قصص عقلاء مجانين الصوفية يجد أنها بناء مكتمل على مستوى عناصر البنية السردية، حيث يتوفر فيها الوصف والحوار والشخصيات وتحديدها للإطار الزماني والمكاني، بالإضافة إلى أنها تجمع بين الإسنادية والطلبية (داخلية وخارجية) والمفارقة والغرائبية.

*/ خطاب عقلاء المجانين مضمونيا يتصف بطابعه الوعظي / الروحي، والذي يستند أساسا على النص الديني والحكمة والمنطق العقلي.

*/ خطابهم في الغالب موجه لسلطة عليا سواء سياسية أو علمية أو روحية.

*/ يتكئون على خطاب إدهاشي / إقناعي يقوم على الحجة والبرهان؛ بحيث لهم القدرة على إقناع من يعتبرهم الناس أعقل عقلاء البشر وأعرفهم بالله.

*/ إنَّ المجنون العاقل الصوفي يستطيع أن يمتلك فعل تغيير وعي الشعوب والثورة ضد الخطاب الدوغمائي للنظام والسلطة، وكأني بخطاب الجنون هو وجه مشرق لجنون الخطاب، وسبيل مأمون إليه، فإذا أراد الشعب أن ينتج جنون خطاب، فعليه بتزكية خطاب الجنون.

تقديم اقتراحات ذات الصلة بموضوع البحث :

1/ الاهتمام بالخطابات الهامشية الأخرى، التي ما فتئت الثقافة العربية في قرون سابقة تصنفها من الطابوهات والقضايا المتحرَّج منها سياسيا وثقافيا ودينيا.

2/ دعوة الباحثين إلى مقاربة النصوص العربية القديمة، ومنها التصوف برؤى حديثة وآليات من شأنها المضي قدما في مشروع بعث التراث الروحي للعقل العربي.

3/ فتح المجال للباحثين من أجل إضافة لبنات أخرى في خطاب الجنون عند طوائف مسكوت عنها في الثقافة العربية.

الهوامش والإحالات :

[1]- عقلاء المجانين، تح : عمر الأسعد، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط01، 1987، ص30.

[2]- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، تح : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ط01، 2004، ص70.71.

[3]- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 2006، ص 47.

[4]- الفتوحات المكية، ج04، تح: عثمان يحيى، ج 04، الهيئة المصرية للكتاب، 1992، ص 98.

[5]- المرجع نفسه، ج04، ص 92 – 93.

[6]- أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري، عقلاء المجانين، مصدر سبق ذكره، ص 36.

[7]- عبد الرحمن بن الجوزي ، أخبار الأذكياء، دار بان حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 2003، ص 35.

[8]- يُنظر: المصدر نفسه، ص 35

[9]- أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، ج06، تح: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية، بومباي، الهند، ط01، 2003، ص 349. الحديث رقم [3313]. الحديث حكم عليه محمد ناصر الدين بالوضع، انظر: تحقيقه لمشكاة المصابيح، ج03، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط03، 1985، ص1406، الحديث رقم [5046].

[10]- الفتوحات المكية،ج 04، مرجع سبق ذكره، ص 322.

[11]- أبو نصر سرّاج الطوسي، اللمع ،عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، ص63.

[12]- أبو بكر محمد بن أبي إسحاق الكالاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص71.

[13]- المرجع نفسه، ص69.

[14]- الصفحة نفسها.

[15]- أمراض القلب وشفاؤها، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، ط02، 1399هـ ، ص65.

[16]- الصفحة نفسها.

[17]- ينظر لمن أراد الاستزادة : فصل : ((العبقرية والاضطراب العقلي))، بنيلوبي مري، العبقرية، تر: محمد عبد الواحد محمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أفريل 2000، ص 281 – 302.

[18]- المرجع نفسه، ص13.

[19]- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج04، مرجع سبق ذكره، ص89.

[20]- المرجع نفسه، ج04، 88.

[21]- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج01، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط01، 2004، ص225.

[22]- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سبق ذكره، ص 51.

[23]- المرجع نفسه، ص35.

[24]- رواه أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبدويه، الفوائد (الغيلانيات)، تح : حلمي كامل أسعد عبد الهادي، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، ط01، 1997، ص 376.

[25]- أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري ، عقلاء المجانين، مصدر سبق ذكره، ص 30.

[26]- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، مرجع سبق ذكره، ص 249.

[27]- العقد الفريد، ج07، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1404هـ ، ص168.

[28]- يُنظر: الحصري القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاءه، مصر، ط01، 1953، ص 164.

[29]- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص 239.

[30]- عبد الرحمن بن الجوزي، أخبار الأذكياء، مرجع سبق ذكره، ص268.

[31]- أبو منصور الثعالبي، درر الحكم، دار الصحابة، طنطا، مصر، ط01، 1995، ص 19.

[32]- الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص 269 – 270.

[33]- عقلاء المجانين، مصدر سبق ذكره، ص 35.

[34]- عبد الرحمن بن الجوزي، أخبار الأذكياء، مصدر سبق ذكره، ص265.

[35]- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سبق ذكره، ص 54.

[36]- الصفحة نفسها.

[37]- العقد الفريد، ج07، مرجع سبق ذكره، ص 180.

[38]- الفتوحات المكية، ج04، مرجع سبق ذكره، ص 88- 89.

[39]- أبو بكر البيهقي، الزهد الكبير، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 03، 1996، ص 260.

[40]- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفوة، ج02، تح : أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000، ص 115.

[41]- المصدر نفسه، ج02، ص 398.

[42]- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، مرجع سبق ذكره، ص 55.